

الفصل السابع

انهيار إسرائيل من الداخل

obeykandi.com

## القرار من الخدمة العسكرية

الجيوب الاستيطانية تم غرسها في إفريقيا وآسيا عن طريق الاستعمار الغربى لاستيعاب الفائض البشرى فى القارة الأوربية، ولتكون قواعد للدفاع عن المصالح الغربية فى آسيا وإفريقيا. وينتمى الجيب الاستيطانى الصهيونى لهذا النمط، فقد أسس ليستوعب الفائض البشرى اليهودى ولوضع حل للمسألة اليهودية، وفى الوقت نفسه عليه أن يقوم بحماية المصالح الغربية نظير الدعم العسكرى والسياسى والمالى الذى يقدمه له الغرب. والجيوب الاستيطانية تفرض على سكان آسيا وإفريقيا بحد السلاح الغربى، ولذا فوجودها يستند إلى القوة العسكرية التى تحاول طرد السكان الأصليين أو قمعهم، ولتحقيق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين. والقوة العسكرية الصهيونية تنتمى لهذا النمط، وقد أحرزت قدرًا لا بأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين.

وكانت العسكرية الصهيونية قد نجحت فى أن ترسخ فى وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، بل إن الأيديولوجية الصهيونية تجعل اليهود شعبًا مختارًا (بالمعنى الدينى والعلمانى) وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، كما تخلع القداسة على الجيش حتى إنه وُصف بأنه القداسة بعينها. وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية قداسة خاصة. إلى جانب هذا كانت الخدمة العسكرية السبيل لدخول النخبة الحاكمة، ففى المجتمع الاستيطانى، لا بد أن يدفع الفرد ضريبة الدم ليصبح جديرًا بالاشتراك فى الحكم وصنع

القرار. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسّهم الأخلاقي والقومي والديني، ورغبتهم في البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة، وباعتبار أن العرب يهددون البقاء الإسرائيلي نفسه. ومما دعم كل هذه الادعاءات انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التي ضمنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج واستمرار الأساطير الصهيونية.

وحتى فترة قريبة كان التطوع في صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يعتبر من الأعمال المرموقة. حتى إن هذه القوات كانت تضطر في الماضي إلى الاعتذار لعدد من الراغبين في التطوع لوجود ما يكفيها من العناصر. وقد سجلت حالات انتحار في الماضي، من جانب الشباب الذي كان لا يستطيع الالتحاق بالقوات المسلحة.

غير أن الوضع قد تغير، وقد لوحظ مؤخراً انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها. فأشار إسحق مردخاي (أحد وزراء الدفاع السابقين) إلى أنه قد طرأ انخفاض حاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي.

وفي إحصاء عام ٢٠٠٠ تساءل أحد كبار الضباط عن شرعية قيام الجيش بتجنيد إلزامي بينما ٢٠٪ من الشباب لا يتم تجنيدهم، وحوالي ٢٠ - ٢٥٪ يهربون أثناء الخدمة (ملحق هاآرتس ٢٦ مايو ٢٠٠٠). وفي إحدى استطلاعات الرأي صرّح ثلث الشباب الإسرائيلي أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التي تستغرق ثلاث سنوات) فعلوا ذلك. ويعتمد الجيش الإسرائيلي على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالي ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة شهر حتى سن الخمسين لإعادة تدريبهم. وقد لوحظ أن حوالي الثلث يتغيّبون. ويطلقون الآن في إسرائيل على الذين يؤدون خدمة

الاحتياط الكلمة العبرية «فرياريم» والتي تعنى «البُلهاء». وأثناء الصدام الذى وقع بين الجيش الإسرائيلى وسكان نابلس فى سبتمبر ١٩٩٦ استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضر سوى ٦٠، ولم يبق منهم سوى ثلاثين. وقد رفض أحدهم الذهاب للصفة الغربية (عدد المجندين الذين يرغبون فى الخدمة فى الأحداث القتالية يتراجع ليصل إلى ٥٪ من عدد المجندين).

وقد نشرت هاآرتس فى ملحقها الذى سبقت الإشارة إليه إحصاءات دقيقة عن هذا الموضوع:

\* فى عام ١٩٩٨ أعرب ٦٥٪ من البنين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٣، ١٨ سنة عن استعدادهم للخدمة فى الوحدات القتالية، أما فى عام ٢٠٠٠ فقد هبطت النسبة إلى ٥٣٪.

\* وفى عام ١٩٩٨ أعلن ٢٣٪ تفضيلهم للخدمة بالقرب من منازلهم، أما فى عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٣٤٪.

\* وفى عام ١٩٩٨ أعلن ١٪ من البنين فقط أنهم لا يرغبون فى أداء الخدمة، أما فى عام ٢٠٠٠ فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٦,٢٪.

\* وكلما كانت أعمار المشاركين فى الاستطلاع ترتفع - أى كلما كانت مسألة الخدمة العسكرية بالنسبة أقل نظرية وأكثر واقعية - كان موقفهم أكثر سلبية. وهكذا فعلى سبيل المثال أعلن ٥,٥٪ فقط من الأبناء الذين تراوحت أعمارهم ١٣ / ١٤ سنة عن رغبتهم فى عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية مقابل ٦,٦٪ من الأبناء الذين تراوحت أعمارهم بين ١٧ : ١٨ سنة.

\* بالنسبة للبنين ممن تراوحت أعمارهم بين ١٣ : ١٤ سنة فقد أعرب ٥٥,٨٪ ممن شملهم الاستطلاع عن رغبتهم فى أداء الخدمة بوحدة قتالية مقابل ٤٧,٩٪ فقط من البنين ممن تراوحت أعمارهم بين ١٧ : ١٨ سنة.

\* اتضح أنه كلما كان المستوى الاجتماعي والاقتصادي لمن شملهم الاستطلاع منخفضاً كان الدافع لديهم منخفضاً كثيراً. فقد أبدى أقل من ٣٠٪ ممن يعتبرون من الطبقة الاجتماعية والاقتصادية ذات المستوى المنخفض رغبتهم في أداء الخدمة بوحدة قتالية مقابل أكثر من ٦٥٪ ممن يعتبرون من الطبقة العليا.

وقد ظهرت حركة شبابية في إسرائيل تسمى «بروفایل جديد» وهي حركة مستقلة تأسست في أكتوبر ١٩٩٨ وهدفها العمل على إلغاء التجنيد الإلزامي وتقوم الحركة بعقد ندوات للشباب حول قضية الخدمة العسكرية وتجمعات احتجاجية من أجل رافضي الخدمة. كما أن أعضاء هذه الحركة يساعدون الشباب الراغب في الامتناع عن أداء الخدمة أو التسريح من الجيش سواء لأسباب تتعلق بالوضع الاقتصادي لأسرهم أو لأسباب أيديولوجية أو لمجرد عدم الرغبة في الخدمة. ويزعم أعضاء هذه الحركة أن أفكارهم نالت تأييداً كبيراً خلال العامين والنصف الماضيين. فحينما أسست الحركة كان بها حوالي ١٥٠ عضواً ولكنها تضم الآن مئات الأشخاص مما يدل على شرعيتهم المتزايدة يشير عدد من أعضاء الحركة إلى أن إحدى الشركات في أنشطة الحركة هي روني بن عامي قرينة شلومو بن عامي (وكان من أهم الوزراء في حكومة باراك).

كل هذا يعني أن الظاهرة لم تستقر بعد، وأن المفجنى آخذ في التصاعد، وهذا يثير إشكالية كبيرة بالنسبة للجيب الاستيطاني الصهيوني، ذي المهمة القتالية، وبخاصة مع اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة.

وظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية ظاهرة خطيرة في أي مجتمع، وتزداد خطورتها في مجتمع استيطاني، يتهدهه السكان الأصليون، ويواجه مشكلة أمنية في علاقته بجيرانه، وأوكل له مهمة قتالية من قبل أولياء

نعمته. ومع هذا يجب أن نشير إلى أن القضية - رغم خطورتها - لم تُثر في المجتمع الإسرائيلي على نطاق واسع لأسباب عملية منها: أن الجيش الإسرائيلي يفضل أن يستبعد مثيري المشاكل ويتركهم وشأنهم حتى لا تُثار القضية وحتى لا يناقشها الرأي العام. وبينما كان الجيش في الماضي ينشر استطلاعات الرأي الخاصة بالرغبة في الخدمة في الوحدات القتالية في الجيش، نجد الآن أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن كثرة النشر حول انخفاض الدافع له أثر سلبي واضح، ولذا آثروا الصمت.

ويبدو أن من أهم أسباب الإعفاء من الخدمة العسكرية هو الأمراض النفسية، ويشير اللواء فينوعام لاوفر إلى أنه لو أُقيمت عيادة نفسية تضم ١٠ أطباء فإنه بعد فترة سيكون عندهم من الحالات النفسية الكثير والكثير. هذا يعني أن الأمراض النفسية في تزايد في إسرائيل، ومن ثم الإعفاءات العسكرية. ولكن اللواء يسارع بنفى ذلك بقوله «إن القدرة التشخيصية للأمراض النفسية (وليس الأمراض النفسية ذاتها) قد تزايدت». ولذا فهو يرى أن العيادات النفسية الكثيرة لا ضرورة لها. واللواء لاوفر عنده مطلق الحرية أن يفسر الأمور كما يراها هو، ولكن ما أتى به من حقائق تتحمل تفسيرات أخرى غير التي أوردتها، ولعل أقربها للواقع أن حالة الحرب المستمرة التي يعيشها المستوطن الصهيوني أمر لا يتحمله الجهاز العصبي للإنسان، ولذا تتزايد الأمراض النفسية (وهو ما تؤيده كثير من الدراسات العلمية).



### سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية

يبدو أن المجتمع الإسرائيلي قد أصبح أكثر تسامحاً تجاه المتهربين من الخدمة العسكرية، ولا يفرض عليهم أية عقوبات. خذ على سبيل المثال حالة سيرجي سندلر البالغ من العمر ٢٣ عاماً، وهو طالب يدرس الفلسفة

في جامعة بن جورريون ويصف نفسه بأنه يعشق السلام وينبذ العنف. سُرح سندلر هذا من الجيش بعد أن أودع السجن العسكري في أواخر عام ١٩٩٤. ولكن ماذا حدث له بعد ذلك؟ يعلق سندلر على وضعه قائلاً: «لقد كنت واثقاً بما فيه الكفاية بأنني حكمت على نفسي بالمقاطعة الاجتماعية لعدم خدمتي بالجيش، ولكن اتضح لي أن المجتمع الإسرائيلي قد تغير وبسرعة خلال السنوات الخمس الماضية. إن وسم أولئك الذين يرفضون الخدمة بالخزي والعار لم يعد موجوداً. وأشعر بأن نظرة التقديس التي كان المجتمع يُكنها لجيش الدفاع قد اختفت، كما أن المولعين بالجيش قادرون على قبول أيديولوجيتي واحترامي ويفهمون أنهم يلتحقون بالخدمة العسكرية لأنهم يؤمنون بها وأنا لم ألتحق بها لأنني لا أؤمن بها» (ملحق هاآرتس ٢٦ مايو ٢٠٠٠).

وقد أشرنا في المقال السابق إلى قرينة شلومو بن عامي (الوزير الإسرائيلي السابق) وعضويتها في جمعية «بروفایل جديد» التي تقف ضد الخدمة العسكرية، ويمكن أن نشير هنا إلى أحد أبطال التهرب من الخدمة العسكرية، وهو أقيف جيفين، ابن شقيقة موسى ديان، ويُعد جيفين من أشهر المغنين الشباب في إسرائيل، ويُقال إنه يشبه في ملامحه وحركاته مايكل جاكسون. وقد ظهر قبل سنوات في التلفزيون وهو يتحدث عن كيفية حصوله على الإعفاء من الخدمة لأسباب نفسية. وقد انتهى به الأمر إلى الهجرة إلى بريطانيا بعد أن تقدم بطلب مسبب للهجرة ذكر فيه أنه يهاجر بسبب «سرطان الاحتلال».

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى القرار من الخدمة العسكرية النقاش الدائر حول مسألة تجنيد طلبة المدارس الدينية. فعند إعلان الدولة تم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، تحت ضغط الأحزاب الدينية ولكن

عددهم حينذاك كان لا يتجاوز ٤٠٠. ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩,٠٠٠. ولعله زاد الآن عن ثلاثين ألفاً. ومع تزايد علمنة المجتمع الإسرائيلي وتزايد استقطابه بدأت أصوات الاحتجاج على هذا الوضع تتزايد، ولكن الأهم من هذا، وجود هذا العدد الضخم من الشباب الذين يرفضون الخدمة في الجيش استناداً إلى أسباب دينية يهودية، يسبغ قدراً كبيراً من الشرعية على الفرار من الخدمة العسكرية.

وقد ذكرنا حتى الآن عدة أسباب تؤدي إلى الفرار من الخدمة العسكرية، ولكن يمكننا القول: إنها كلها جانبية إذا ما قورنت بهذين السببين المنفصلين المتصلين.

#### ١ - سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية.

٢ - سقوط الأيديولوجية الصهيونية وتصاعد معدلات العلمنة والاستهلاكية والأمركة.

ولنبداً بالعنصر الأول. هناك دوافع كثيرة تدفع الإنسان للقتال من أهمها الرغبة في البقاء، وهي رغبة قد تأخذ شكلاً اجتماعياً وقد تأخذ شكلاً فردياً. فيمكن أن يُعرف الفرد نفسه بأنه عضو في جماعة وبالتالي يتوحد بقاءه مع بقاء الجماعة. وتصبح شعارات مثل «الدفاع عن الوطن» - «حفظ الكرامة القومية» - «حدود الأرض المقدسة» لها معنى ومضمون. ولإنجاز ذلك لا بد للمجتمع أن يقدم للفرد أيديولوجية تفسر له ما حوله وترسم له ماضيه وحاضره ومستقبله بطريقة ترضيه وتقنعه أنه يمكنه أن يحقق ذاته من خلالها.

ولكن إن لم يقتنع الفرد بالأيديولوجية المهيمنة، فإن كل الشعارات السابقة تصبح سخيفة طنانة، ويبدأ الفرد في تعريف بقاءه على أنه بقاء

فردى لا علاقة له بالمجتمع ، وبالتالي يبحث عن منفعة الشخصية وعن متعته الفردية ، بغض النظر عن التكلفة الاجتماعية .

وقد حدث شيء من هذا القبيل في المجتمع الاستيطاني الصهيوني . وقد ذكرنا في مقال سابق أن المؤسسة العسكرية الصهيونية أقنعت الشباب الإسرائيلي أن حربهم ضد العرب هي حرب دفاع عن النفس وأنه لا خيار لهم في ذلك . حتى إن أحدهم قال إن شعار الجندي الإسرائيلي هو أنه «يجب أن تطلق النار على عدوك ، ثم فلتذرف الدمع ساخناً . حتى يمكن للجندي الإسرائيلي المسكين أن يحتفظ بنقائه الداخلي ! كما كانوا يتحدثون عن «تطهير السلاح الإسرائيلي» ، فهو سلاح لا يُستخدم إلا في الدفاع عن النفس وليس لقتل الأبرياء .

كان هذا الوضع سائداً حتى عام ١٩٦٧ حين وصلت «الانتصارات» الإسرائيلية إلى ذروتها ولكنها لم تأت لا بالسلام ولا بالنصر ، كما أثبتت نظرية الأمن الإسرائيلية فشلها ، فهي كانت قد أقنعت الإسرائيليين أن استعمال القوة سيحقق له الانتصار النهائي والأمن الدائم وأن العمليات العسكرية السريعة الإجهادية ستحقق كل شيء . ولكن بعد بضعة شهور وجد الإسرائيليون أنفسهم في حرب استنزاف مع عدوهم المهزوم ، الأمر الذي دعا المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالون للحديث عن «عقم الانتصار» . ثم جاءت حرب ١٩٧٣ والعبور العربي العظيم ، وبعدها جاء غزو لبنان ، وهو «انتصار» إسرائيلي آخر عقيم جعل الإسرائيليين يتحدثون عن «المستنقع اللبناني» الذي غرقوا فيه ، ثم أخيراً اضطروا للانسحاب من الجنوب اللبناني في جنح الظلام ، ثم هناك انتفاضة عام ١٩٨٧ ، وأخيراً انتفاضة الأقصى ، وحين استخدمت القوات العسكرية الإسرائيلية في ضرب المواطنين العزل .

وقد استنتج الشباب الإسرائيلي من كل هذا ما يلي :

١ - أدرك المستوطنون الصهاينة أن ذاكرة العرب حية وأن ذراع الدولة الصهيونية الاستيطانية العسكرية القوية لا يمكن أن تضعهم في برج حصين ولا أن تقدّم لهم الحماية طوال الوقت.

٢ - أدرك كثير من الشباب الإسرائيلي أن الدولة الصهيونية ليست فنى حالة دفاع عن النفس كما يقولون وإنما هي دولة عدوانية. ففي حرب لبنان على سبيل المثال أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف من عملية سلام الجليل هو هدف دفاعى حتمى لوقف ما يسمونه الهجمات الفدائية وتطهير مساحة ٦٧ كيلو متر مربع من لبنان. ثم ظهر أن الهدف الحقيقى كان هو فرض حكومة وظيفية عميلة في لبنان تحت حماية إسرائيل. وقد أدى هذا إلى تداعى الإجماع القومى الإسرائيلى. كما أن استمرار الاحتلال فى الضفة الغربية لما يزيد على عشرين عاماً كان من الصعب الدفاع عنه باعتباره دفاعاً عن النفس.

٣ - استُخدمت قوات الاحتلال الإسرائيلية فى قمع المدنيين إبان انتفاضة ١٩٨٧ (ثم انتفاضة الأقصى)، وهو أمر يصعب تفسيره أو تبريره أو تصويره على أنه دفاع عن النفس، إلى جانب أن استخدام القوات العسكرية النظامية فى ضرب المدنيين يفقدها كثيراً من احترامها لنفسها وانضباطها.

٤ - مع تراجع احتمالات الحرب بين العرب والمستوطنين الصهاينة (بعد توقيع شتى معاهدات السلام) أصبح الحديث عن العمليات العسكرية الإسرائيلية باعتبارها دفاعاً عن النفس أمراً مستحيلاً، خاصة وأن المؤسسة الصهيونية تردد شعارات السلام بشكل مُبالغ فيه أحياناً (رغم معرفتها باستحالة تحقيقه)، حتى تُدخِل الطمأنينة على قلب المستوطنين، وتوهمهم أن النهاية عند المنعطف المقبل وأن الأمن المطلق مسألة أيام أو شهور.

٥ - لا شك في أن زيادة معدلات العلمنة والعولة والسعار الاستهلاكي لا تساعد كثيراً على تصعيد روح القتال. كما أن جو الخصخصة العام السائد في إسرائيل يزيد تمركز الفرد حول نفسه ويجعله يضع نفسه قبل المجتمع.

٦ - واكب كل هذا تآكل الأيديولوجية الصهيونية، فهي لم تعد الإطار الفكرى الذى يفسر للمستوطنين واقعهم ويبرر وضعهم القتالى. باختصار شديد إن الأيديولوجية الصهيونية ما عاد لها مجال فى المجتمع الصهيونى ولم يعد الشباب الإسرائيلى يقتنع بها. لكل هذا صرح وزير الدفاع (السابق) إسحق مردخاى أن انخفاضاً حاداً طرأ على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية فى صفوف الشباب الإسرائيلى. ثم أضاف: «يعتقد البعض أننا وصلنا مرحلة الراحة، والبعض الآخر يرى أننا يجب ألا نساهم بكل جهودنا فى الدفاع عن إسرائيل».

ولعل خطاب العريف إيال روزنبرج إلى الكولونيل شاؤول شاهر يلخص موقف كثير من الشباب الإسرائيلى.. لم تساورنى من قبل فكرة رفض التجنيد، فكل أصدقائى مجتهدون، وكل أفراد عائلتى المولودون فى إسرائيل جندوا وهم فى مثل سنى. وقد حرص والداى على غرس عقيدة التجنيد فى نفسى، لأنها فى رأيهما، سلوك إيجابى ينبغى أن يُقبل دون نقاش.. مر الوقت ثقيلًا، وانتهت فترة التدريب.. ولكن الكارثة المعرفية التى خلفتها بداخلى بدأت تتحرك فى اتجاه مخالف، إلى نوع من التأمل الذاتى لفهم ما يدور حولى، تأمل فى طبيعة «جيش الدفاع الإسرائيلى» وفى الأنظمة الاجتماعية والسياسية التى قذف بنا داخلها.. وعندئذ وجدت نفسى أشك فى جميع افتراضاتى الرئيسية عن ضرورة وجود الجيش الإسرائيلى، وكذلك فى قيمة الخدمة العسكرية، وفى مصداقية القيم التى يتفاخر بها الجيش الذى يسمى نفسه «جيش الدفاع».

إنه الجيش الذى ذبح الآلاف بل عشرات الآلاف من الفلسطينيين خلال عام ١٩٤٨ وطرده وطارده مئات الآلاف، وهو الجيش الذى ساهم فى تنظيم الهجمات الإرهابية الفاشلة خلال فترة تولى موسى شاريت رئاسة الوزارة.. وسعى إلى استعادة سيطرة القوى الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية على قناة السويس أثناء حرب ١٩٥٦. وهو الجيش الذى هاجم وضرب بالقنابل وذبح كثيراً من الجنود والمدنيين فى الأردن ومصر وسوريا على مدار العشرين عاماً الأولى من إقامة دولة إسرائيل. وهو الجيش الذى طرد قاربة ١٣٠ ألف سوري من أرضهم فى مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧ والتي يحتلها إلى الآن، والذى يُخضع أكثر من مليون فلسطينى فى قطاع غزة وغيرها لاحتلاله الدموى العاشم منذ عام ١٩٦٧، ولا يزال يمارس نفس إجراءاته القمعية فى معظم الأراضى المحتلة، يُدمر ويذبح المواطنين المدنيين بل توقف حتى هذه اللحظة. وهو الجيش الذى قتل آلاف المواطنين اللبنانيين والفلسطينيين، وجرح ما يقرب من ٣٠٠ ألف مواطن على مدار العشرين عاماً الأخيرة فقط. كل هذا بدعوى حماية مستوطنات شمال إسرائيل.. الجيش الذى يساند ويدعم إقامة المستوطنات فى الأراضى المحتلة، ويسعى إلى بقائها فى وجه المقاومة الشعبية.. الجيش الذى يفسد ويشوه أرواح من يخدمون فيه، لدرجة أنهم يضعون مصالح القادة الشخصية ومصالح النظام العسكرى فوق مصالحهم ومصالح أصدقائهم. ومع ذلك، فإنه يواصل زعمه بأنه «جيش الدفاع»، وبأنه يحفظ «نقاء الجنود»، وبأنه «جيش الشعب»..

وبناءً على ما تقدم، فإننى أعلن لكم رفضى التام لأن أخدم فى جيش الدفاع الإسرائيلى، بأية طريقة، بأى موقع، فى أية وحدة، بأية رتبة،

فى أى زمن، وتحت أى ظرف من الظروف. وأطالب فى الوقت نفسه بأن تعتبرنى السلطات الإسرائيلية مواطنًا عادياً لم يعد هناك ما يربطه بجيش الدفاع.

(المصدر: (Indymedia News, 10 December 2000).

ولكن من المفارقات التى تستحق التسجيل والملاحظة، أن هذا الجيل الجديد الذى يفر من الخدمة العسكرية ولا يكثر بها، هو جيل «أكثر عسكرية» كما يقول أفينيرى شاليط (أستاذ العلوم السياسية بالجامعة العسكرية). وقد وُلِدَ أعضاء هذا الجيل فيما يسمّى «أرض إسرائيل» ولذا فهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن الاحتلال بالقوة «مسألة طبيعية» وأن الضفة الغربية ليست «أرضًا محتلة» (أو كيوبايد occupid). وإنما أرض قومية توراتية ومن ثم فهى أرض «متنازع عليها» (ديسبوتيد disputed - كما يقول المصطلح الأمريكى) وعلى اليهود الاحتفاظ بها ولا يحق لهم التنازل عنها أو التفاوض بشأنها. والعرب هنا هم «عرب يهودا والسامرة»، وبالتالي «خرق حقوقهم» لا يشكل مشكلة خلافية بالنسبة لهم.



### الرأس الصغيرة والمعدة الكبيرة

أشرت من قبل إشارة عابرة إلى أن تآكل الأيديولوجية الصهيونية باعتباره أحد أسباب الفرار من الخدمة العسكرية. وحيث إن هذا البعد هو فى واقع الأمر أهم الأسباب طرًا، فإن الأمر يتطلب شيئًا من الإفاضة.

أخبرت الصهيونية الشباب الإسرائيلى أنهم طليعة الشعب اليهودى المضطهد، وأن غالبية أعضاء هذا الشعب ستهرع إلى الدولة اليهودية فور إعلانها، وهو ما لم يحدث حتى الآن، لأن غالبية أعضاء الشعب «المضطهد المنفى» لا تزال متشبثة «بمنفاها»! كما أخبرت الصهيونية

أن العرب لا وجود لهم وأن فلسطين أرض بلا شعب، وإن وُجدوا  
فيمكن تهيمشهم وتهشيمهم عن طريق القوة، وهو ما أثبتت الأعوام  
السابقة عبثيته.

باختصار شديد لم يعد الشباب الإسرائيلي يأخذ الأيديولوجية  
الصهيونية على محمل الجد. والجدير بالذكر أن عدد هؤلاء آخذ في  
الازدياد نظراً لازدياد عدد المهاجرين إلى إسرائيل (وبخاصة من روسيا).  
ودافع الهجرة عند هؤلاء دافع اقتصادي محض لا تشوبه أية شواذب أو  
ادعاءات أو مثاليات صهيونية.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (أى المجتمع  
الصهيوني) كجزء من مشروع حضارى متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية  
اليهودية. والتطبيع هنا يعنى الشفاء من عقلية الاستجداء الاقتصادى من  
الغير أو الأغيار ومن الاعتماد السياسى عليهم، كما يعنى عدم الانغماس فى  
أعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة والتحول إلى  
شعب يهودى منتج بمعنى الكلمة يسيطر على كل مراحل العملية  
الإنتاجية، وبالتالى على مصيره الاقتصادى والسياسى.

لكن، وبعد مرور ما يقرب من خمسين عامًا على تأسيس الدولة  
الصهيونية، يمكن القول بأنها أبعد ما تكون عن قصة النجاح  
الموعود. أما على مستوى السيادة السياسية، فالمستوطن الصهيونى يضطر  
دائمًا - نتيجة وضعه - للاعتماد على قوة خارجية تضمن له البقاء  
والاستمرار من خلال الدعم العسكرى والسياسى المستمرين، وهو ما يفرغ  
مفهوم السيادة من مضمونه تمامًا.

والدعم الاقتصادى للدولة الصهيونية يحل مشاكلها الاقتصادية ولكنه  
تذكير يومى للمواطن الإسرائيلى بأن الصهيونية لم تنجح فى تطبيع اليهود

وفى شفائهم من أمراض المنفى. فالمستوطن الصهيونى أصبح شتخصية استهلاكية، ولم يتحول إلى شخصية منتجة يعمل بيديه ويتواجد فى مختلف المراحل الإنتاجية.

والفشل الأيديولوجى وتآكل الأيديولوجية يُولد ما يُسمى «أزمة المعنى». وعادةً ما تؤدي أزمة المعنى إلى إحساس بالعدمية يحاول الإنسان التغلب عليه من خلال الاستغراق فى عنصر مادي بشكل كامل (شرب المخدرات - الإباحية - الاستهلاك) يبحث الإنسان من خلاله عن قدر من الثبات والتوازن إن لم يكن من اليقين. لكن ما يحدث هو العكس إذ أن تصاعد الاستهلاك وإغراق الحواس فيه يزيد أزمة المعنى بدلاً من تهدئتها، ويزداد بذلك تآكل الأيديولوجية وتقويضها.

ولكن ما يهمنا فى هذا السياق أن التآكل الأيديولوجى يؤدي إلى أن ينكفى المستوطن على نفسه، ويبحث عن بقائه الشخصى وعن خلاصة من خلال التوجه الحاد نحو اللذة. وما يزيد من هذا التوجه نحو اللذة حدة ما نسميه الانتقال من مرحلة التقشف التراكمية (التي امتدت من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧) إلى مرحلة الاستهلاك الفردوسية. ففي الفترة الأولى التقشفية كان المستوطنون الصهاينة يعيشون حياة تقشفية يزرعون ويأكلون وينظمون أنفسهم تنظيمًا عسكريًا صارمًا، تحسبًا لهجوم السكان الأصليين عليهم بعد الاستيلاء على أرضهم وإبادة بعضهم. وقد واكب ذلك ضبطًا للنفس وإنكارًا للذات، بل التضحية بها.

ولكن كل هذا كان يتم، منذ البداية، باسم الهدف النهائى والقيمة المرجعية النهائية، أى تحقيق الذات وتعظيم اللذة، وكل ما كان يتم من إرجاء للإشباع وتقشف حاد كان يتم باسم الاستهلاك الآجل، خاصة وأن المستوطن الصهيونى، رغم كسل الادعاءات الأيديولوجية اقتلعت

من وطنه واستوطن في أرض مغتصبة بحثاً عن الحراك الاجتماعي والرفاهية الاقتصادية.

ولهذا فحينما حققت إسرائيل انتصاراً عام ١٩٦٧، أي بعد نحو ٢٠ عاماً وحسب من تأسيس الدولة، تفجرت الرغبات الاستهلاكية وزاد النزوع نحو اللذة وارتفعت التوقعات وانخفضت القدرة على التحمل إذ شعر المستوطنون الصهاينة أن المرحلة التقشفية قد انتهت وأن الوقت قد حان لدخول مرحلة الاستهلاك والسلع المستوردة، وهذا يعني أن ارتفاع معدلات العلمنة في المجتمع أدى إلى اكتساح القيم، والمطلقات كافة، ومعها المطلق الصهيوني نفسه وسائر آليات ضبط النفس التي تتم في إطاره، وذلك قبل أن يضرب المجتمع بجذوره وقبل أن يؤسس بنيته التحتية. ولذا، تزايدت معدلات الأمركة في المجتمع، وضعفت مقدرة المستوطنين على تحمل المشاق. ومع تفجر الانتفاضة تصاعدت حدة أزمة المجتمع الصهيوني.

لكل هذا تغيرت الأنماط الإدراكية في المجتمع فتراجع نموذج الكيبوتسنيك (عضو الكيبوتس) المتكشف المحارب وظهر نموذج روش قطان، أي المواطن ذو الرأس الصغير والمعدة الكبيرة الاستهلاكي الرخو، وظهر مجتمع الـ 3V: الفولفو والفيديو والفيلا.

ونظراً للتوجه نحو اللذة في التجمع الصهيوني نجد أن المفهوم القديم للمستوطن الصهيوني باعتباره رائداً يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تآكل، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعي وعن رفع مستوى معيشتهم. ولذا يلاحظ أن المستوطنات الجديدة في الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا توجد فيها أي مظهر من مظاهر التقشف وإنما توجد فيها منازل فاخرة وحمامات سباحة وكل أشكال الرفاهية. والدعوة إلى الاستيطان فيها لا تأخذ شكل

شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هي دعوة سافرة للاستهلاك، فأحدى الإعلانات تتحدث عن فيلا واسعة، فى موقع جميل، بنصف ثمن الفيلا الماثلة داخل حدود ٦٧ ولكنها مع هذا تقع على بُعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس وبتانيا وتل أبيب.

ومما يساعد على تفشى النزعة الاستهلاكية ظاهرة الأمركة، والأمركة هى أسلوب حياة جوهره اتخاذ موقف برجماتى ينصرف عن الكليات والمبادئ ليركز على التفاصيل وحل المشاكل المباشرة، ويعتمد العنف آلية أساسية من آليات حل الصراع، ويركز على الفرد بالدرجة الأولى وتأكيد ضرورة الإشباع الفورى.

والأمركة مرتبطة تمام الارتباط بالعولة التى لها نفس الأثر فى التجمّع الصهيونى، فالإنسان الذى يفقد جذوره الإثنية والدينية يميل بشكل أكبر نحو الاستهلاك، لأن استهلاك السلع يصبح السبيل إلى تحقيق الفردوس الأرضى. وفى إطار العولة تصبح السلع العالمية (أى الأمريكية) هى رمز هذه الجنة الجديدة.

وهذه الظواهر موجودة فى كل المجتمعات ولكن أثرها السلبى أعمق فى التجمّع الصهيونى لأنه مجتمع يستند عقده الاجتماعى إلى أيديولوجية تشكل الهوية عصبها وعمودها الفقرى.

ويرتبط بكل هذا الاتجاه نحو الخصخصة، فالخصخصة تعنى أن نقطة البدء هى الفرد وليس المجتمع، وأن المشروع الفردى يسبق المشروع القومى. ومثل هذا الموقف يزيد بغير شك حدة السعار الاستهلاكى. وللخصخصة أعمق الأثر فى التجمّع الصهيونى باعتباره تجمّعًا استيطانيًا لا بد أن ينظم نفسه تنظيمًا جماعيًا ليضمن لنفسه البقاء والاستمرار أمام

مقاومة أصحاب الأرض. ولاشك أن كون المجتمع الصهيوني مجتمع مهاجرين يعنى أن هناك دائماً جماعات بشرية جديدة، تفد على المجتمع وتصد من سعاره الاستهلاكى.

فى هذا الإطار وُلدت الحساسية الجديدة لدى الشباب الإسرائيلى، فهو - على حد قول المعلق السياسى الإسرائيلى يوئيل ماركوس - لا يفكر إلا فى ذاته. والأيدىولوجية الصهيونية لا تعنى الكثير بالنسبة له، فهو منخرط فى حياته اليومية وفى مجتمعه المترف الذى لم تكمهده إسرائيل فى أى وقت سابق. لقد أصبحت النزعة الفردية وكذلك النزعة المادية هما المسيطرتين على المجتمع الإسرائيلى. وتحولت إسرائيل من بلد كان يقدر الجماعية إلى بلد يقدر الفردية، ومن بلد تتحد كل صفوفه لتطبيق المشروع الصهيونى إلى بلد تغذيه الفردية والمادية من كل جانب.

لقد تراجعت الدوافع الاجتماعية للخدمة العسكرية وأصبح الدافع الأساسى هو الراتب حتى إنه فى بداية عام ١٩٩٩ هُدّد الطيارون العسكريون الاحتياط بالإضراب إلا إذا حصلوا على بوليصة تأمين شاملة. لكل هذا يمكن القول بأن الكيان الاستيطانى يتحرك نحو الاعتماد على جيش نظامى، الدافع الأساسى للخدمة فيه هو الدوافع الشخصية، بدلاً من جيش الاحتياط الشعبى، وهذا التحول سيكون له أعمق الأثر على سياسات إسرائيل الداخلية والخارجية.



### آين بريرا - لا خيار

لحظات نادرة هى التى يعبر فيها الوجدان الصهيونى عن مخاوفه وقلقه، وعمّا أسميه «الهاجس الأمنى». الذى يرى الصهاينة أنه يعود إلى تجربة اليهود مع الاضطهاد على يد شعوب الأرض والطرده من أوطانهم، وهى التجربة التى وصلت إلى ذروتها مع الإبادة النازية لليهود. أما أعداء

اليهود فهم يقولون: إن الهاجس الأمني سببه جبن الشخصية اليهودية وحرصها الشديد على الحياة الدنيا! ومثل هذه الأطروحات تفترض وحدة اليهود وأنهم كيان مستقل عما حولهم.

ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن الهاجس الأمني عند المستوطنين الصهاينة لا يختلف عن الهاجس الأمني الذي يشعر به كل المستوطنين في كل الجيوب الاستيطانية، ومصدره هو الخوف من السكان الأصليين الذين اغتُصبت أرضهم، والذين قد يسهبون في أية لحظة للمطالبة بها ولطردها المغتصبين. هذا ما حدث للمستوطنين الأمريكيين البيض في أمريكا الشمالية، وهذا ما حدث لهم في أستراليا ونيوزيلندا والجزائر وجنوب إفريقيا. انظر على سبيل المثال لهذه المقطوعة الوصفية: «كان الرجال يمسكون المحراث بإحدى أيديهم والبندقية بالأخرى، وكانوا يُعدّون من المحظوظين إن لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق إما في الحقول أو في مخزن الغلال».

إن هذه المقطوعة تقدم لنا صورة مُزارع مُسلح يعمل فيما أسماه «الزراعة العسكرية»، أي الزراعة الاستيطانية، وهي الزراعة التي تختلط فيها مهنة الزراعة بمهنة القتال، فهي زراعة تتم على أرض مغتصبة، يقف أصحابها الأصليون على حدودها يقرعون الأبواب بلا هوادة.

والمقطوعة السابقة مقتبسة من قصة قصيرة أمريكية «دفن روجر ملفن» لثانايال هوثورن، كتبها في منتصف القرن التاسع عشر، ويصف فيها المستوطنون البيض في أمريكا الشمالية. ولكنها أيضاً تصلح لوصف المستوطنين الصهاينة ولؤسسات إسرائيل الزراعة العسكرية مثل الكيبوتس. الهاجس الأمني إذن ليس له جذور يهودية وإنما جذوره استيطانية. وهذا ما أدركه بعض أعضاء النخبة السياسية الحاكمة، وكثير من الأدباء

الصهاينة (والخطاب الأدبي [ على عكس السياسى ] يفصح عن مكنونات النفس البشرية وهو اجسها لأنه يعبر عن كيان الإنسان ولا وعيه. أما فى حالة الخطاب السياسى، فالمتحدث عادةً ما يأخذ حذرته، ويراقب كلامه فلا يُظهر ما يبطن).

وقد فعل موشيه ديان عكس هذا تمامًا، فى الخطاب الذى ألقاه فى أبريل ١٩٥٦ أمام قبر صديقه الشاب روى روتبرج، ضابط الأمن فى إحدى الكيبوتسان (ناحال أوز)، والذى لقى مصرعه على يد الفدائيين الفلسطينيين. وكلمة ديان تستحق أن نقتبسها بأسرها، فهى لحظة صدق نادرة:

«فجّر أمس قُتل روى. أعماه هدوء الصباح الربيعى ولم ير هؤلاء الذين طلبوا حياته المختبئة خلف الأحرش.

دعونا اليوم لا نلقى اللوم على القتلة. ما الذى يمكن أن نقوله ضد كراهيتهم البشعة لنا؟ ثماني سنوات الآن وهم يقيمون فى معسكرات اللاجئين فى غزة، ويرون بأم أعينهم كيف تنقل لوطننا الأراضى والقرى التى امتلكوها وامتلكها أجدادهم من قبل.

علينا أن نطلب دم روى من بيننا وليس من بين عرب غزة. كيف أغمضنا أعيننا ورفضنا أن ننظر بواقعية إلى مصيرنا، ونرى قدر جيلنا بكل وحشيته؟ هل يمكن أن ننسى أن هذه المجموعة من الصغار، القاعدة فى ناحال أوز، تحمل على أكتافها بوابات غزة الثقيلة؟

ما وراء أحرش الحدود يبرز بحر من الكراهية والثأر: أثر يتطلع لليوم الذى سيقوم فيه الهدوء بكسر حدة حذرنا، اليوم الذى نذهب فيه للسفراء المنافقين الذين يطالبوننا بالقاء سلاحنا. علينا، وعلينا وحدنا، يصرخ دم

روى من جسده المغدور، لأننا أقسمنا آلاف المرات أن دماءنا لن تُسفك هدرًا. إلا أنه بالأمس فقط قاموا بإغوائنا، وسمعنا وصدقنا.

دعونا اليوم نراجع أنفسنا. نحن جيل الاستيطان وبدون عمود الصلب وفوهة البندقية لن يمكننا زراعة شجرة أو بناء بيت. دعونا لا نخشى الاطلاع على الكراهية التي تستهلك وتملأ حياة المئات (الآلاف) من العرب الذين يعيشون حولنا. دعونا لا نغفى طرفنا حتى لا تضعف أسلحتنا. هذا هو نصيب جيلنا. هذا خيارنا - أن نكون مستعدين ومسلحين، قساة خشنين - وإلا سقط السيف من يدينا وقصرت أعمارنا.

إن روى الشاب الذى رحل من تل أبيب ليبنى بيته عند بوبات غزة ليكون طليعة لشعبه - أعمى النور فى قلبه بصره، فلم يروم يرضى السيف. أصم الحنين للسلام أذنيه ولم يسمع صوت القاتل يترصده. وأثبتت بوابات غزة أنها ثقيلة على كتفيه، وتغلبت عليه.

والكلمة حزينة ولكنها ليست مأساوية، وإنما قدرية، وهى ترى أن الإسرائيلى هو الضحية، وأن العرب هم المعتدون. ولكن مهما كان الأمر فقد ساد بين الإسرائيليين اصطلاح «آين بريرا»، أى لا خيار، أى أن على المستوطنين الصهاينة أن يحاربوا - يحاربوا دائمًا - يحاربوا أبدًا ضد عدو لم يهدأ له بال، لا فى عام ١٩٤٩ ولا فى عام ١٩٥٩ ولا فى عام ١٩٩٩.

وفى هذا الإطار لاحظ الكاتب الإسرائيلى بن عيزر أن الإسرائيليين الشباب الذين يخدمون فى الجيش يشعرون أن أهلهم يقدمون قربانًا على مذبح الدولة، هذا الوثن الأعظم، الذى شبهه أحد الحاخامات المعادين للصهيونية، بأنه مثل العجل الذهبى، فهى - كما قال الشاعر - تضحية علمانية لإسحق (المقابل التوراتى لسيدنا إسماعيل). ولنتخيل سيدنا إبراهيم يقوم بذبح ابنه، ولكنه لا يؤمن بإله.

وقد تحدث الشاعر حاييم جورى بمرارة عن أن كل إسرائيلي يولد «وفى داخله السكين الذى سيذبحه» ثم أضاف إن تراب إسرائيل لا يرتوى، «فهو يطالب بالمزيد من المدافن وصناديق الموتى». ومرة تبدو الدولة الصهيونية مثل الوثن الأصم المتعطر للدماء.

إن الإحساس بالضيق قد تعمق فى الإنسان الإسرائيلى لا بسبب «تراثه الصهيونى» وإنما بسبب وضعه الاستيطانى، وهو وضع أودى به وأدخله فى حروب مستمرة. انظر على سبيل المثال لأغنية مائير باناي، وهى أغنية جميلة حزينة تعبر بشكل دقيق عن تساقط الشرعية الصهيونية وإحساس المستوطنين بذلك:

كلهم يذهبون إلى مكان ما،

يرنون للمستقبل العذب،

أما أنا، فأستيقظ فى الصباح

وأركب الحافلة رقم ٥ المتجهة للشاطن،

الحافلة مليئة بالدخان،

وعجوزان،

والكمسارى،

وهناك كتابة على حائط أسمنتى:

ماذا حدث للدولة؟

انظر إلى الدولة وانظر إلى الأسمنت!

تغنى الطيور «صباح الخير»

لعله يمكننى أن أطير معها بعيداً، ولا أسقط.

إن الأغنية تعبر عن الإفلاس التام عن عبث المحاولة.

ولا شك في أن الهاجس الأمني والإحساس بالقدرية وخيبة الأمل قد تعمق بعد انتفاضة الأقصى والاستقلال. ألم تكن نقطة الانطلاق الصهيونية هي أن إسرائيل «أرض بلا شعب»، فما بال هؤلاء الرجال والأطفال والنساء والشيوخ يلقون بالحجارة، بل ويطلقون النار، عليهم، ألم يكن من المفروض أن يكونوا غائبين؟

□□□

### هل ستنتهار إسرائيل من الداخل؟

هل ستنتهار إسرائيل من الداخل من تلقاء نفسها، بسبب أزماتها وتناقضاتها الداخلية الحادة؟ كثيراً ما يُطرح هذا السؤال، وللإجابة على هذا السؤال سنذكر بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيوني والتي تبين معدلات التآكل الداخلي. من المعروف أن مؤسسة الكيبوتس كانت هي العمود الفقري للتجمع الصهيوني. فمعظم أعضاء النخبة السياسية الحاكمة بل والثقافية كانوا من خريجيها (حتى عام ١٩٧٧). ولكن الكيبوتس تعرض لكثير من الأزمات وتغير طابعه العام، بل وفقد شيئاً من طابعه الجماعي العسكري. وقد نشرت جريدة ידיعوت أحرونوت (٢ يناير ٢٠٠٠) ما يلي:

أعلنت أمس هيئة مكافحة المخدرات أن تعاطى المخدرات الخفيفة في مزارع الكيبوتس قد تضاعف خلال خمس سنوات حيث قام ٢٣,٥٪ من أبناء الكيبوتس ممن تراوحت أعمارهم بين ١٨ - ٣٠ سنة بتعاطى مخدرات خفيفة خلال عام ١٩٩٨ مقابل ١١,٤٪ تعاطوا الحشيش والماريجوانا خلال عامي ١٩٩٢ - ١٩٩٣. وكان البحث قد أجرى في ٢٢ كيبوتساً وتشمل ٦٦٢ فرداً بناءً على طلب من هيئة مكافحة المخدرات.

وماذا عن المجتمع الإسرائيلي ككل؟ أشارت معطيات جديدة نُشرت في تل أبيب إلى تفاقم ظاهرة تعاطي المخدرات بين صفوف تلاميذ المدارس الإسرائيليين. وذكرت صحيفة معاريف (٥ يونيو ٢٠٠٠) أن استطلاعاً خاصاً أجرته وزارة العمل والرفاه الاجتماعي الإسرائيلية لحسابها مؤخراً أظهر أن ٣٧٪ من تلاميذ صفوف العاشر في المدارس الإسرائيلية معتادون على تناول الخمر وأن ٨٪ من التلاميذ المعتادين على «الشرب» أبلغوا أنهم يستهلكون مراراً في المساء الواحد ستة كئوس من الخمر.

من جهة أخرى يتضح من معطيات صادرة عن «مجلس سلامة الطفل في إسرائيل» أن ارتفاعاً بنسبة ٣٠٪ قد سُجل خلال عام ١٩٩٩ على عدد الشباب الإسرائيليين القاصرين الذين وُجّهت إليهم تهمة الإتجار بالمخدرات.. حيث قُدّم في عام ١٩٩٨ ما مجموعه ٤١٧ لائحة اتهام ضد شبان ضُبطوا يمارسون تجارة المخدرات وحيازتها لغير أغراض الاستهلاك الذاتي، وقد ارتفع عدد لوائح الاتهام المماثلة الموجهة في عام ١٩٩٩ إلى ٥٥٦ لائحة اتهام.

والحياة العائلية في التجمع الصهيوني في حالة تآكل، فقد ذكرت جريدة معاريف (٢٥ يناير ٢٠٠٠) أن من بين كل ٣ حالات زواج يكون مصير حالة واحدة منها الطلاق. وقد طرأت زيادة بنسبة ١٥٪ في عدد حالات الطلاق بإسرائيل منذ عام ١٩٩٠. واستمرت هذه الزيادة أيضاً خلال السنة الميلادية الماضية حيث سُجلت زيادة بنسبة ١٪ في عدد حالات الطلاق (نحو ٨,٦٠٤ حالات). وتتصدر منطقة تل أبيب «قائمة الطلاق» حيث وقعت بها ٣,٠١٦ حالة طلاق عام ١٩٩٩ بزيادة قدرها ٢١٪ مقابل عام ١٩٩٨.

وقد ذكر معلق هاآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠ أن عدد السيدات اللاتي أنجبن خارج إطار الزواج ارتفع من واحد لكل مائة حالة إنجاب في السبعينات إلى ١,٨ لكل مائة حالة إنجاب في عام ١٩٩٤. وفي نفس الشهر أشارت جريدة يديعوت أحرونوت إلى أنه قد طرأ زيادة بنسبة ٥٠٪ في عدد حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال داخل الأسرة، كما طرأت زيادة بنسبة ٢٥٪ في عدد حالات الجرائم الجنسية التي يتعرض لها الصغار خارج نطاق الأسرة في عام ١٩٩٩.

والتأكل الأسرى عادةً ما يؤدي إلى تزايد معدلات العنف بين الأطفال والشباب. وبالفعل ذكرت جريدة يديعوت أحرونوت (٢٤ مايو ١٩٩٩) أن الإحصاءات تشير إلى معدلات عالية من العنف في كل المجالات وجميع المراحل السنية وكل شرائح السكان. وكشف كثير من التلاميذ عن تعرضهم للعنف اللفظي والبدني. ويعتبر العنف البدني هو الأكثر ذيوغاً بين تلاميذ المدارس الابتدائية بينما يقل معدله مع اقترابهم لسن البلوغ. واكتشف الباحثون أن الاعتداءات البدنية البسيطة هي الأكثر انتشاراً وإن كان معدل السلوك المتطرف ليس هيناً.

وأضافت الصحيفة أن أكثر من ٥٠٪ من تلاميذ الصفوف من السادس إلى العاشر كانوا مشتركين في العنف بصورة ما. وأكثر من ٦٠٪ من التلاميذ اشتركوا في أعمال بلطجة تجاه زملاء لهم أو كانوا ضحايا لأعمال عنف. واشترك حوالي ١٥٪ : ٢٠٪ في مستويات أكثر خطورة من العنف وأصيب حوالي ١٤٪ خلال مشاجرات وكانوا في حاجة إلى علاج طبي.

وفي محاولة تفسير ظاهرة العنف نُشر مقال في جريدة هاتسويه (٧ أبريل ٢٠٠٠) بعنوان «فناء مدرسة أم ساحة قتال؟» يبين أن العنف بين الشباب لم يأت من فراغ بل إنه تغذى من العنف ذي المستوى المرتفع

فى مجتمف البالغين وبصفة خاصة من اللامبالاة تجاه مظاهر العنف فى السلوك الإسرائيلى.

ثم نأتى أخيراً للشذوذ الجنسى، ورغم أن اليهودية الحاخامية التقليدية تحرّمه، إلا أن معظم المذاهب الدينية اليهودية المعاصرة مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة، قد تقبلته وقننت له بل أنشأت مدارس دينية خاصة لتخريج الحاخامات الشواذ جنسياً. وقد أبرم حاخام إصلاحى عقد زواج بين رجلين أمام حائط المبكى عام ١٩٩٨، وكان يُعدُّ انتصاراً لحرية الرأى.

والشذوذ الجنسى أصبح مقبولاً فى المجتمع الإسرائيلى. خذ على سبيل المثال بينيك، الذى يلبس دبلة الزواج الآن، فهو سيتزوج من صديقه العام المقبل. يقول بينيك (كما جاء فى ملحق صحيفة هاآرتس ١٤ أبريل ٢٠٠٠): وضع الشواذ جنسياً فى إسرائيل الآن أفضل من الناحية القانونية والتشريعية وهو من أفضل الأوضاع على مستوى العالم. نحن متساوون تقريباً مع الدول «المتقدمة» فى العالم مثل: الدنمارك وهولندا، فلا يوجد فى إسرائيل قانون يمنع أن تكون شاذاً جنسياً، ولا يوجد قانون يمنع اللواط. بالعكس هناك قانون المساواة فى فرص العمل تقوم المحاكم بدراسته ويروع أصحاب الأعمال عن التمييز ضد الشواذ. فى كل مرة يحاولون التمييز ضدنا تصدر المحاكم حكمها لصالحنا. وبالإضافة إلى ذلك نحن فى طريقنا نحو إصدار قوانين التبني التى تسمح للشواذ بتبنى الأطفال. وهو يعتقد بأن الشواذ وحلفاءهم من أعضاء منظمات حقوق الإنسان سينجحون خلال عشر سنوات فى أن يكون التشريع الإسرائيلى عادلاً تماماً، بما فى ذلك الاعتراف بالزواج بين الشواذ.

ولعل تقبل المجتمع الإسرائيلى للشذوذ الجنسى يظهر فى أن عدد السحاقيات فى إسرائيل اللاتى أنجبين أطفالاً (من خلال عمليات معملية

مختلفة) هو الأعلى فى العالم (هاآرتس ٩ مايو ٢٠٠٠)، ولعل هذا يعود إلى محاولة الجيب الاستيطانى تجاوز أزمته الديموجرافية.

والآن بعد أن ذكرنا هذه الأرقام والإحصاءات يمكننا أن نطرح السؤال الذى طرحناه فى بداية المقال، هل هذا يعنى أن المجتمع الإسرائيلى سينهار من الداخل، كما يعنى البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفى القاطع للأسباب التالية:

١ - مقومات بحياة التجمع الصهيونى لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم مالياً وعسكرياً وسياسياً من الولايات المتحدة والعالم الغربى والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

٢ - يتسم المجتمع الإسرائيلى بالشفافية وبالتالى حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدى لها أو التكيف معها.

٣ - توجد مؤسسات ديموقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان فى التجمع الصهيونى أن يقدموا الحلول من خلالها.

٤ - ثبت أن كثيراً من المجتمعات يمكنها أن تعيش فى حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكومبيوتر) يساهم فى هذه العملية، إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشرياً أن يستمر فى العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التى تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذاً جنسياً أو تعاطى الخمر والمخدرات فى الليلة السابقة.

إن القضاء على الجيب الاستيطانى لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومى المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تآكل فى التجمع الصهيونى هى عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس

قوة ضخمة لا تُقهر، لكنها فى حد ذاتها لا يمكنها أن تودى به أو أن تودى إلى انهياره.

يجب ألا تخدعنا الأرقام الصماء وألا نتصور أنها الحقيقة، فالأرقام مجرد حقائق، والحقيقة غير الحقائق، فهى ثمرة اجتهاد إنسانى، وليس مجرد تلقُّ ببيغائى. واجتهادنا فى قراءة الحقائق يؤكد أن الجهاد ضد العدو ضرورة.